

التبادل الطقسي و التمثّل الاجتماعي. البراح والإهداءات في المجال الحضري بالغرب الجزائري*

الحاج ملياني**

مقدمة

يندرج هذا العمل في إطار بحث شامل حول الممارسات و التعبيرات الثقافية في الوسط الحضري، هذه الخطوة ترمي إلى فهم أهمّ مراحل تكوين و تمظهر الإنتاج الرمزي داخل الحقل الاجتماعي في الجزائر. طرحنا هذا، تدعمه بعض النتائج المتوصل إليها في بحوث سابقة من دون أن نؤكد بناء شكله الداخلي أو الخارجي و هو مفروض بشكل متميّز على أسس تصوّرات اجتماعية و تعبيراتها الجمالية و الرمزية. يقدم هذا النظام قاعدة تسيير قانون دائم و شامل، و هو الذي يدير قوانين ثانوية و معيارية، تعرّف و تميّز الجماعات و الأفراد في المجال الحضري الجزائري.

و ضمن الإطار العام تكون الممارسات الاجتماعية من خلال طابعها الشعائري و اللغوي، و البروز الشعري، دليل على تجدر إرث تراثي يبدو على أنه قد فقد كلّ خصوصياته، و لا يتجلى إلاّ في الأفراح و الحفلات ذات الطابع الفلكلوري، فهي لن تكون إلاّ بقايا ماض فقد للأبد، و "البرّاح" من خلال ممارسته الإهدائية ما هو إلاّ فاعل أو شكل من أشكال التفاعل اللغوي، إذ هي ليست إلاّ أمثلة معاكسة، مسجلة في الامتداد الزمني و في التأقلم مع التغيّرات التي تسير مجتمع

* نقله إلى اللغة العربية بن فافة خالد.

** أستاذ التعليم العالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مستغانم.

يبحث دائما عن ما يعرف و يرسم مكوّناته و المعايير المتحكّمة في رابطة الاجتماعي.

1. البرّاح

البرّاح¹ حسب التقليد المغربي، هو من يحوّل التعاقدات الجماعية و الفردية إلى أخبار عامّة، و يكون بهذا النقل للمعلومات وظيفتان، الأولى تتعلق بتسجيل الحدث، أما الثانية فإعطاء هذه المعلومة شرعية سوسيورمزية. و في إطار الأدوار، خطاب البرّاح له خاصيتان، أوّلا استدعاء للأهل و الأقارب، و في أغلب الحالات يكون الغرض منه تثبيت و إظهار الوضعية الاجتماعية للمعني اتجاه الآخرين.

يحاول البرّاح من خلال عرض معلومة معيّنة، و عن طريق صياغتها بطريقة شاعرية أن يتميز بممارسة التأقلم مع مختلف المناسبات "فالبرّاح هو لا محال أهم خاصية للخطاب الشّفوي، من خلال التّناسب و التجانس مع وضعية معيّنة، جمهور معيّن، و مناسبة معيّنة، العلم الحقيقي للخطاب الشّفوي هو علم الزّمن المناسب « kairos »، الكيروس هو عند السوفسطائيي « sophistes » الوقت المثالي الذي يجب وجوده من أجل الكلام به و إعطاء كل الفعالية للكلمة"²

لكنّ هذا الخطاب غير حرّ و به تقيّد خاص، عندما يحاول البرّاح الابتكار و إدخال ما يقتنيه من ذلك التّسيج المعرفي المشترك الجماعي، سواء من كلمات "الملحون" أو الكلام المنظوم الشعبي ذو الصّبغة الدينية أو كلام مناسب لحظة الإلقاء، هو بالفعل المعني الجماعي المشترك الذي طالما أبرزه جيرتز³ الذي يراه "طبيعي، فعّال رقيق، بدون منهجية معيّنة"⁴ و الذي يبني بعمق "ماديا و تعبيريا" الممارسات و الأنظمة الرّمزية في حال مشاركتهم في ".....) منطق لغوي و طبيعة تشكيلية هيكلية حتى في حال دورانه في الفراغ ينتج معنى

¹ Voir Marçais, W. et Guiga, Abderrahmane, *Textes arabes de Takroûna, II, Glossaire, contribution à l'étude du vocabulaire arabe*, tome premier, pp. 265-267.

² Mammeri, Mouloud ; Bourdieu, Pierre, *Dialogue sur la poésie arabe en Kabylie, Actes de la recherche en sciences sociale*, W n° 23, Septembre 1978, p. 60.

³ Geertz, Clifford, *Ssavoir local, savoir global, les lieux du savoir*, Paris, PUF, 1986.

⁴ Geertz, op.cit., p.108 et sq.

مشترك من أجل أن يعطي كلمات و حركات ذات معنى جميل و منطقي و لا عقلاني في آن واحد⁵.

يعطي الفاعلون الاجتماعيون إطارا للتعامل (البّراح، الشّخص الذي يمنح المال للبّراح، مستقبل المال و الاستفادة من التّبرّحة، المعارضين على التّبرّحة و المانحين المال من أجل المعارضة...) يحدّدون كلّهم نتائجهم، إيقاعه و حدوده، يحدّدون قواعد و يفوضون حول محور التعاون " بمعنى يتعاونون من أجل صنع ومضة واقعية و ترتيب سابق لأوانه⁶ فهم يحدّدون " معرفة " كيفية التوزيع أثناء وقوع الإهداءات، يتشاركون فيما يعتبرونه " فنّ المناسبات " و هذا يتوافق مع ترتيبات أشكال الإعلانات الشّفوية التي تندرج في خطابات معتدلة: "عصر خطابي مميّز للكونيات التقليدية و الجماعات المعتدلة الحديثة (نقابة، حزب) التي تعطي معنى للكون، بمعنى المكانة الثقافية الرّمزية المكوّنة في العلاقات مع الآخرين"⁷.

" بصحّتكم و الله يعطيكم صحّ قاع

بصارا مسجل من لجدود ها لميلود

و لحشما ورث من دا لدا

خلقنا قسايد من لجدود ها لميلود

و الجايح ديما دارو باردا

كاين لصايق ليل بعمود هاميلود

هشيش لعقل لتكلم واش من فايدا

لما ساجيا لحبيبيها....هاميلود

و الجايح تبّع غير في الصوالدا

كل هذا التنوع في أنماط الخطابات هو بحد ذاته متأقلم مع أشكال واقعية، مادية، بالنظر إلى المناسبة و الأشخاص الموجهة إليهم: المدح، النقد، المجاملة، الدّعوة، الصلاة، الإثارة.... الخ.

⁵ Bourdieu, Pierre, *le sens pratique*, Paris, Minuit, 1980, p.161.

⁶ Watier, Patrick, *styles de vie et mode de vie, cahiers de l'imaginaire, imaginaire et vie quotidienne*, n° 4, 1989, p. 19.

⁷ Auge, Marc, *pour une anthropologie des mondes contemporains*, Paris, Aubier, 1994, p. 234.

التبريحة كفعل موجه في زمن و مكان مناسب و محدّد، هي تابعة في المجالات و الأماكن الحديثة أو المعروفة حديثا (ملهى ليلي، سهرة زفاف، قاعة حفلات....) تنتج ما يمكن معرفته بـ "التجاوز الزمّني".

إنّها تتمظهر و تتألق مرتكزة على ثلاث مراجع، زمّني عن طريق التقاليد، بمعنى الذاكرة المتوارثة، اجتماعي عبر قوام جماعي بدوي، و ثقافي في اللاوعي الجماعي، و المقتنى الاجتماعي بأشكال بسيطة مثل قالب جمالي لغوي شامل على قوالب أخرى، و هي الرباعيات، الأمثلة الشعبيّة، أقوال مأثورة، و هذه المراجع الثلاثية تختلف عن تلك التي تبرز خصوصيّة العالم الحضري و أشكال الترفية: (استهلاك، ملابس، دعوة، تقاليد الحفلات و المناسبات....).

يجمع فن التّبرّاح بين طلبات اجتماعية، معرفة إلقاء الخطاب و معرفة فعل الأمور، يعطي في المجتمع المغربي "للمرسول الفصيح الشّعبي" خاصيتين: أولا كأصل للمعلومة الاجتماعية في وسط عملية تبادل رمزي و انتقال معايير و قيم معترف بها كسلوك و كطقس جماعي، لكن في الوقت نفسه يندرج في حدود هرم الأدوار الاجتماعية، إذ يبقى رغم كل شيء محضر للمعلومة و منشط اجتماعات احتفالية بالخصوص، لأنّه يندرج ضمن الهرمية الرّمزية لأسياد الخطاب، في آخر صف للفاعلين المرخصين للكلام الشعري، بعد القوّل و المدّاح.

يبقى البرّاح رغم هذا هو المسيطر طويلا على المجالات الطّقوسية و الاحتفالية، فالقوّل و المدّاح في المجتمع يغيّران مجالات و ميادين المعيشة و المخالطة الاجتماعية (السوق، السّاحات العمومية) التي ستندثر مع الوقت، أو لن ينتشرا سوى في أقلّيات أكثرها منغلقة أو هامشية.

البرّاح، في خسارته لوظيفته كإعلامي عمومي (الشخص الذي يصرخ) سيصبح أكثر فأكثر منشط حفلات عائلية و خاصّة، يجمع بين وظيفتين، مسير أعمال الفرقة الموسيقية التي يعمل معها، و منظمّ الحفل و منشط رئيسي. هو الرجل⁸ الذي لا يمكن الاستغناء عنه في الحفلات الجماعية أو الخاصّة، مهمّته

⁸ "باختصار أظن بأن هذه الشخصيات هي التي يرجع لها الحق في التّحكّم بالرأي هم الممثلون الرّسميون في هذه الوظيفة، من طرف الذين يتحكّمون و يحركون الرأي، و هذا الإقرار يعني تقول ما أفكر به، و في نفس الوقت الذي تقول ما أفكر به، و تقول لي أن أفكر بما أفكر، على كلّ حال، لن أسمعك إذا لم أفكر بما تقول لي".

Bourdieu, P., Méthodes d'approche du monde rural, Alger, OPU, 1984, p.197.

و إبداعاته تتمظهر في إمكانية جلب نقود الحاضرين بالحفل، مبتكرا أو مرتجلا من أجل كل مانح للنقود رباعية شعريّة لشرفه، فعالية الذاكرة العفوية و المخزون الذاكري المهم للأبيات الشعرية، هي الخاصية الأساسية المطلوبة عند البرّاح المحترف.

2. إعادة تركيب المراسيم الإحتفالية في الحاضر – تأثير البرّاح –

يبين الأدب الاثنوغرافي⁹ جليا بأن احتفال الرّفاف يعطي في طاقسه وقتا مستقطعا من العرض الموسيقي لتنهال الهدايا النقدية، سواء للعريس أو للموسيقيين الحاضرين، يتعلق الأمر إذن بـ "البرّاح الرّاهن"¹⁰ أي القارض، حيث يتمظهر البرّاح جليا في خضم الرّفاف أو "التقصيرة".

يعطي عبد القادر عزة أيضا بعض أمثلة القطع الشعرية المفقاة و التي ينتجها البرّاح في ظروف معينة¹¹ هذه الأمثلة هي النوع المنتشر و المعروف للتبريحات، و التي يمكن استحضارها في جميع الحالات من أجل أي فرد أو جماعة.

من جهته يوضح جاموس "« Jamous » أن المدائح التي يطورها البرّاح في الرّيف المغربي، خلال حفلات الرّفاف تتمحور حول نفس الموضوع متعلقة بكلّ استراتيجيات التعامل بشرف و رفعة المقام" نحن نعطي لا نهاب أن نعطي، نحن لسنا بخلاء، لا نترك الأشياء لنا لوحدها، لأن الذي لا يعطي شيء هو لا شيء، نحن نعطي من أجل أن نكون شرفاء، أوفياء لأجدادنا، نذكر بالأفعال البطولية لأجدادنا، من أجل أسماء أعلامنا"¹².

في المجتمع الجزائري الحديث البرّاح و التبريحة على السواء يواصلان احترامهما الدقيق للأشكال الطقوسية التي تظهر بها، و هنا نجد في الأرياف

⁹ Entre autres exemples, cf. E.Westermarck, Les cérémonies du mariage au Maroc, traduit de l'anglais par J. Aim Leroux, 1921 ; J. Desparmet, institutions, croyances des musulmans de l'Algérie, tome I, L'enfance, le mariage et la famille, 2^{ème} édition, Imprimeries la typolitho et J. Carbonnel, réunies, 1948 (pp. 193-194 et p. 197), Raymond. Jamous Honneur et baraka, les structures traditionnelles du Rif, M.S.H/ Cambridge, 1981(p. 268 et suivantes). Dans sa description des mœurs de la société algérienne, le général Daumas décrit le cérémonial lors de la « maaouna » (pp. 451-452), la vie arabe et la société musulmane, Slatkine reprints, 1983.

¹⁰ Dornier, P., *La politesse bédouine dans les campagnes du nord de la Tunisie : le mariage (suite) la semaine des noces*, Ibla, n° 69, 1^{er} trimestre, 1955, p.103.

¹¹ Dr Azza, Abdelkader ; Ben Brahim, Mestfa, *barde de l'Oranais et chantre des Béni Amer*, Alger, SNED, 1979, p.17.

¹² Jamous, Op.cit, p. 274.

تشكيلية قريبة جدا خلافا للمجال الحضري، حيث أخذت بعض الإبداعات الجديدة تدخل على هذه التشكيلات. هذه العناصر غير القابلة للتغيير، تتبلور داخل حركية الذاكرة و إنتاج فعل الكلام مثلما يمكن رؤيته في ممارسة الحكواتي و القوال في النطاق المغربي.¹³

مهما كان نوع التبريحة، بدوي أو حضري، حديث و هاوي أو قديم و محترف، فإنها تنخرط أولا ضمن منطق التبادل- تبادل مادي بالهدايا أو معنوي بالرّمز - و هي إحدى التظاهرات اللغوية الرّمزية القويّة المعاني، التي تشكل في الوقت نفسه رهانا اجتماعيا للمواجهة كما تسمح بالمحافظة على الانتباه في بعث التحدي.

تسمح "المواسم" الوعادي، "الزراي" التي لا زالت تنظم في أيّامنا، لأعضاء مختلف الجماعات ذات الانحدار نفسه أو من المنطقة نفسها، من تحقيق ارتباط رمزي في مشاركتهم لنفس الأنشطة الطقوسية الأساسية المعاشة و المدعو إليها. و بما أنها مدعّمة في أغلب الحالات بقطع موسيقية، تترجم التبريحة في أول شروطها إبقاء الهوية الجماعية التي في حقيقة تشتت أعضاءها أو تغيير تطوّراتها الآنية - يجعلها أكثر حتمية.

من جهة أخرى، تكشف التبريحة بالاحتكاك الذي تصنعه عن طريق نظام مزايدة النقود، ما يمكن تسجيله كمؤشر في مسار التجمع المادي رمز العقاب الاجتماعي الشرعي.

إن التضامن العرقي أو المحلي غالبا ما استصغر شأنه و همش مقارنة مع منطق التغيرات الاقتصادية الخاصة بالمجتمع الجزائري الحديث فأول تغيير وقع نلاحظه في تطوّرات المعاني و الطقوس.

و لعلّ أفعال الهبة و الهدية المعطاة من أجل المعارضة و التحدي و التي تدعى بـ : « Potlatch » هي التي تنشط التبريحة، و تضع فعاليتها في خدمة إستراتيجية الأخذ، ووضعية الاعتراف السوسيورمزي.

¹³ Dournes Jacques propose la notion de « Proto-image » « correspondant à une production intérieure du texte dans l'imaginaire du barde ou du contenu qui « anticipe ainsi sa performance et se place presque en état constant de répétition silencieuse », 1990, Oralité et mémoire collective, Le Grand Atlas des littératures, Encyclopaedia universalis, Paris, pp.86-89.

إن الفعل الشّارح لعملية السّخاء المظهري، هو في عملية إعادة استثمار دائم، حيث يضاف إليها المنافسة المرتكزة على رأس المال الاقتصادي بدلا من الرأس المال الرّمزي.

تظهر مشاركة المجتمع المغترب (المهاجر) في هذه التظاهرة مدى المضاف الرّمزي والمادّي الذي يعطي اليوم مكانة المهاجر، هو مسؤول على إعادة ترتيب الترابطات و إستراتيجية الوضعيات داخل الانحدار و التبادلات العائلية.

سيعرف الشرف الذي هو الشكل الأساسي للطقس في المجتمع التقليدي، في الأشكال التي تأخذها التبريحة - خصوصا في المجال الحضري - انتشارا و توسّعا جد مهمّا. كما أنه ليس فقط رهان الاحتكاك العرقي، بل يرافق استراتيجية الجماعة المتنافرة في إحدى أشكال الهوية و النظام المرجعي، هذان الأخيران اللذان يرتكزان على الأساس و المرجع المجالي "مكان الإقامة" (شخص من نفس الحي أو من نفس المدينة أو من نفس المنطقة)، الثقافة المحلية (جماعة مناصرة لفريق كرة قدم ذاته، نوع موسيقي...)، أو النشاط الاقتصادي (رعاة، حرفيين، تجار...).

إذا كان من أولوية هذا التغيير الأخذ بعين الاعتبار الأشكال الجديدة للتضامن الجماعي، الذي يفرضه المجال الاجتماعي الحضري، يظهر أيضا أنه عبارة عن أطر تجربة تبادل و تفاعل اجتماعي، حيث تنمو مظهرها الإستراتيجية الفردية.

كذلك إذا كانت القراءة الأولى للتّبريحة تؤكد تكرار المعايير الاجتماعية التاريخية، فالخطاب الحالي يربط و يضيف هذه المعايير في الأشكال الحديثة و يعيد إنتاجها باستمرار. يبين هذا في نفس الوقت تقسيم العمل في الحيّ و شروط ظهور الفردانية « Individualité » التي تكون مستقلة في رغباتها المادية و تابعة للأحكام الاجتماعية التي تمنحها لها الجماعة المرجعية في آن واحد.

نفهم من وجهة النظر هاته، أن الشرعية في المجتمع الجزائري الحديث كالتّي تخرجها الأنشطة الشعبية طبعاً، تكون على شكلين من التمثلات التي تنجح التبريحة في جمعهما، ذلك الطقس العائلي و المنزلي الذي يعيد تنشيط الإنفاق السّخي و المظهري، و ذلك هو مستمد من نظام النّجاح المادّي و التّطور الاجتماعي، الذي يبيّن المسار الفردي.

3. التسيير الشعري للمعنى الجماعي و حركية الرمز

يبقى الشرف و المعايير الجماعية دائما خارج تفاصيل و شروط الثابت من أشكال الخطاب و تطبيقاتها المختلفة، فانطلاقا من عمق التقاليد الشفوية، تتغذى التبريحة بشكل خاص من القطع الشعرية أو الرباعيات أو الحكم، كالتي عند سيدي عبد الرحمان المجدوب مثلا شعر عبد الله بن كريو، المشار إليه من طرف البرّاح نونة مكّي، الذي يتشكل بتتابع قطع أمثال شعبية و حكم:

راجل صفة الكذب

لشاف الحق ودرقو عمي

بصّح البارود يخرج من لقصب

يمكن مولاه الرمي

و لجايح متقدم ما درب

و رّقب ايموت على الكلم.

هذه المرجعيّات الجذرية الأصلية هي في أغلب الحالات في وضعية خيبة أمل (القدر، الحظ، فوات الأوان)، أو على قيم غير أصلية و خارجة عن المعايير الجماعية (عدم احترام قانون الشرف و هرم الأدوار الاجتماعية) التي تدهور السّير الاجتماعي. هذا يشكل "نوع من التسميع للذات، تشكيلة أخرى، أقل علو، لكن ليست بالضرورة أقل قيمة، واقع راسخ في الذاكرة، الرّغبة هي شرّ عضال، النساء علاج وهمي، النزاع هو قاعدة المجتمع، تثبت العشيقة الفاضلة، التكبر هو مخرج الفعل، التجرد من عالم النفاق الأخلاقي، الرغبة هي زهرة الحياة، الموت نهاية الرغبة"¹⁴. ولكن يمكننا اعتبار أن الخاصية المخيبة للأمل في التبريحة، تحتوي على عنصرين هامّين، فهي تبعث على نظرة نقدية للترتيب الاجتماعي في خضم محتواها الإعلاني و تحصر كل مرّة القيم الرّسمية المصادق عليها و التي تساعده كمرجع مقياسي لمكانة "علم الكائن و التاريخ"، هذه الوظيفة الثنائية تشكل عن طريق التشكيلية و إنتاجية التبريحة بذاتها، و كذا استشهاد الموضوع و اللفظ الخاص بها.

¹⁴ Geetz, Op.cit, p.143.

4. النتائج البراغمية و البرمجة الاستدلالية.

في إطار التبادلات الطقسية بمناسبة الاحتفال، استطعنا ملاحظة أن الإنتاج اللغوي من نوع "التبريحية" يسجل بشكل ضروري في النموذج الأصلي للإعلانات الخاصة بالاحتفالات، و عليه فمبدأ التكرار، هو أيضا مهم جدا بالموازاة مع إنتاج المقاطع الخطابية الجديدة. لكن بتحديد أدق يجب اعتبار هذا الحشو الظاهر، كعمل استشهادي، و كما يشير إليه « Antoine Compagnon » استشهاد يظهر قبل كل شيء بوصفه علاقة ما بين الخطابات الأولية، حيث يظهر تطوّر قيم دلالية و قيم مكررة في الوقت نفسه¹⁵.

إذا كانت القيم الدلالية مستظهرة بطريقة واضحة في إعلان التبريحية، فالقيم المكررة في هذه الحالة تظهر في حدّين، تشكل من جهة شروط البناء لوجود التبريحية : لا نستطيع الحصول على مكانة التبريحية إلا بالقول المكرر، حتى لو كان تحت شكل شاعري أو على شكل محاكاة، أما في المقام الثاني فمبدأ التكرار يضمن الفعالية الرمزية للقيم الدلالية الصادرة عن الإعلان و التبريحية.

هذا يعني و بشكل أدق، أن مبدأ التكرار يضمن شروط وظيفة فك رموز القيم الدلالية، و لأنه : "فعل الاستشهاد و الإعلان يمنح للمعلن أو المستشهد (الحكيم) قيمة الإشارة، تلك التابعة للمثالية، عن طريقها يشير و يندمج بحقل تجريبي كيفية كونه غائبا، غياب دال و متيسر (...)"¹⁶

كما أنه، بدل جذرية التعبير، يجب التأكيد في الكلام عن التبريحية و جذرية العرض و اللفظ.

إذا كانت المواضيع الصريحة المتناولة، هي في الأغلبية لا نهائية فعلى عكس ذلك البناء الخطابي للعرض يبرز عن طريق نشاط الكلام المحدود الذي يفرضه الشعور الجماعي. و هي غالبا أنشطة مدّعية و معبّرة، ذات مغزى، و هذا على سبيل إعادة استعمال مصطلحات « Searle » الصورة الجذرية لأنشطة الكلام تتلخص في نوعين، الإثبات و الشكوى.

و نادرا ما نجد أبجرامه هجائية (قصيدة تنتهي بعبارة لاذعة) تظهر في محتوى مناظرة خطابية التي تضع في المنافسة "برّاحان" يحمل كلّ واحد منهما

¹⁵ Compagnon, Antoine, *La seconde main ou le travail de la citation*, Paris, Seuil, 1979.

¹⁶ Compagnon, Op.cit., p.59.

كلام مجموعة معينة، أو ينتجان في مواجهة تلعب فيها التجلية البلاغية و الارتجالية دور المنافسة. هذه المناظرات تركز ايجابيا على طقوس الصراع، بدل بناء طقوس للتبادل، هي ثابتة في بداية القرن على أنها "على شكل رباعية مهمشة، أحادية القافية، ذات قافية مسطحة أو متقاطعة، حيث تكون السرعة فعالة بشكل جيد يخدم (الشاعر) من أجل وضع صلة بين العجز و القذف - في نفس البيت الشعري - هي تظهر على أنها استعارات هذه الرباعية من نوع شعري شعبي معروف باسم الصياح « çiah »، ها الأخير الذي يعني اشتقاقا الصراخ، يمكن تعريفه كاجراماة قديمة، قطعة قصيرة قابلة للتأويل، لمعالجة كل المواضيع، لكن من الأفضل أن ندرج في إطار صياغة هجائية.¹⁷

و لكن الوضع في المجموعة الاجتماعية الإيحائية، أي التي تلمح في القول¹⁸ أساسي في الطقس اللغوي الذي تنشئه التبريحة، بما أن الرهانات التي تأخذها على عاتقها (سواء كانت ترتيب رضائي، غايته رضا الناس أو جدالي، تهكمي) هي إنتاج تفاعل بين متلقين نتيجة التبريحة في افتراض الترميز و فك الرموز للخطاب. لهذا، خارج القيم القوية للتبريحة، المفعول الرجعي للنشاط الثقافي و الطقسي يعطي الرمز الجماعي في وقت إعلانها.

الأمر الذي أشار إليه « Jamous » عن طريق التصرف الشريف المتواجد بالريف المغربي، هذا المسار الذي يعطي مجادلة دينية و تبادل عنيف :
 "كل سلوكيات التحدي و المعارضة، هي خارقة و منتهكة، إنها تعطي المنوع المتجاوز اختراق و تجاوز المنوع ليس بالمسألة الأساسية في ترتيب القيم، من يتحدى، يتعدى على الحدود التي يجب أن تحترم، لكنه يعرف أيضا قيمة ما يتعدى عليه، لا نتعدى إلا على ما هو أهل له"¹⁹.

التبريحة كطقس، تعطي نوعا من التوازن بين الغيرية و الهوية، إذا كانت الهوية تشارك بنمط الرضا و القبول، الغيرية تصنع عن طريق وكلاء العنف الناتج عن مقاطع المواجهة و الاحتكاك، صراعات اكتساب التصدر و السلطة

¹⁷ Desparmet, J., *Les chansons d'Alger pendant la grande guerre*, Revue Africaine, n° 350-351, 1^{er} et 2^{ème} trimestre, 1932, p. 57.

¹⁸ Français, Jacques, *La mise en communauté de l'énonciation*, Langages, n° 70, Juin 1983. « La mise en discours ».

¹⁹ Jamous, Op. cit, p.68.

الرمزية: "النشاط الطقسي غالبا، يزاوج بين المفهومين الغريبة و الهوية، بهدف إعطاء توازن العلاقات التي نجد فيها دائما إشكالية.

أما فيما يخص لغة الهوية، فهي ليست إلا واحدة من اللغتين التي تؤلف الروابط الرمزية التي تنسج النسيج الاجتماعي"²⁰.

وفي وجهتها الاحتفالية الحضرية، "التبريحة"، إذا واصلت عكس إستراتيجية التحدي و المعارضة، فإنها تطرح مظهرين للتعارض في المخطط النظري و الشكلي، هما من جهة، النموذج الأصلي، الأولي للإنسان بدون شرف بدون انحدار معلوم و لا سيرة اجتماعية محترمة، أي العبارة المعارضة التي تشير إليها التبريحة ضمنا، تقع خارج مجموع المستمعين، التي تتعاون خصوصا مع معايير و القيم الايجابية النموذجية التي تعلنها بالموازاة مع الصورة الثانية التي هي أكثر وضوحا و تأثيرا، فالقيم الأصلية هي حميمية ترجع إلى حالة اجتماعية تاريخية مؤرخة (قبل، في وقت الإيمان و النزاهة... الخ) و منه التعارض الجماعي المتواجد (أيامنا هذه) يناسب حقا التطور و النمط الوظيفي في المجتمع الحالي :

ياه ولرqb على كلمة الصّح ما يقبلوهش

ولاد أنسب تحشم من خيالها

ناس أقبيل راهم ما يولوش

داو الغلة وسقاوها

وداوها بسر وماهدروش

وكسبو دنيا بمالها

و للحقوا دوك ما يعرفوش

سخفو غير على الفضل كلاوها

و يمكنها أيضا إعطاء مقاطع تناسب الذوق الحديث، و غالبا قد تكون في شكل مدح رافق سنوات ما بعد الاستقلال الجزائري، خصوصا في سنوات السبعينات حيث ظهرت التبريحة السياسية المبنية على ترتيب الكلمات و على نتاج أحداث سياسية آنية، نادرا معادة، منتجة من أجل مرافقة الحفلات المناسبة السياسية (الإيديولوجية) للتعبئة الشعبية، هذه الاهداءات تبقى

²⁰ Auge, Marc., Op.cit, p. 85.

كمنتوج لغوي منعكس بشكل مطابق للأصل، على الخطاب الاجتماعي والسياسي الرسمي.

هذه المقتطفات التي تدخل في الإطار المؤسساتي، تضيف كل أشكال الأحداث المحلية أو الوطنية، تنشيط التضامن الجماعي و الرابط الاجتماعي. هي في نفس مقام تشجيعات كرة القدم، الرياضة الشعبية و الحافز الأساسي للمشجعين والأنصار الذين يتنافسون في استعمال عبارات شعرية مديحية، هذه الأخيرة التي يستعين بها البراح المحترف أو المرتجل و يسجلها في خزينته الكلامية.

الخلاصة

ترجمت دائما التبريحة في أصولها البعيدة في الزمن و إلى يومنا هذا، البعد الجماعي في محتواها الإعلاني، مدمجة المهم و الأهم من التمثلات الجماعية بعباراتها (الشرف، الهوية، التبادل) أو الترفيحية (اهداءات شعر ، تسليية)، و قد استطاعت الحفاظ على وجودها و المحافظة على خصوصياتها رغم وجوب تطورها، موضحة و مبرزة من دون أي شك دور و خصائص ثقافة الماضي.

و على الرغم من مبدئها التخطيطي و المقلوب، فهي جزء متنوع من الإعلانات التي يظهر بها لعبة لغوية ثابتة بين المعايير الأخلاقية و الطوائف المفروضة من طرف محتوى التبريحة. و هي مسجلة أكثر فأكثر في التقاليد الشعبية بوصفها مرافقة ضرورية للأغنية تزجج و تعيق بهذا النشاط توحيد مقياس الإنتاج الموسيقي.

هذه الإعانة و الإقراض للنص الموسيقي، أساسية باعتبارها مخزنا و مرجعا للقول، و محاولة معادة في كل مرة لطبع محادثة رمزية، و عليه كل مقولة ليست سوى صدى بدون روح لهوية غير موثوق منها.